الأربعاء: 2024/11/13
التوقيت: 08:00 – 09:40
القاعة: 12 في الكلية

المحاضرة رقم 05: قراءة في النّثر الفنّي عبر التّاريخ الأدبيّ العربيّ.

- **نشأة النّثر الفنّي:**

كان من الصّعب علينا تحديد نشأة النّثر الفنّي في السّاحة العربيّة، لأنّ الباحثين الذين اهتمّوا بدراسة الأدب الجاهلي لم يستطيعوا إثبات وتأكيد الوجود الأدبيّ لعرب الجاهليّة وبخاصّة فيما يتعلّق بالنّثر، فهي كانت مجرّد أراء وتقديرات وتخمينات لا يمكن الأخذ بها والاطمئنان إليها، رغم الآثار النّثريّة المختلفة التي تنسب إلى الجاهليين، فيكاد مؤرّخو الأدب يتّفقون على عدم صحّة شيء منها، والسّبب في عدم الثّقة بهذه النّصوص هو أن وسائل التّدوين لم تكن ميسّرة في العصر الجاهلي.

- النّثر الفنّي في العصر الجاهلي:

النّثر الجاهلي يوجد بصور مختلفة مثل الأمثال والخطابة والقصص وسجع الكهان بالإضافة إلى تجلّيه في القصص القصيرة، حيث كانت الحياة والبيئة الصّحراويّة تفرض عليهم نوعاً ما أن يحكوا القصص ويسرح الرّاوي بخياله ليبهر من يسمعه، وكانوا يقصّون القصص عن حروبهم ومعاركهم وعن الملوك والأمراء بالإضافة إلى العديد من القصص حول الجنّ والشّياطين، ثم ظهرت الأمثال والتي تميّزت بإيجازها وسرعة انتشارها وشهرتها، ومن ثمّ ظهور الكتب والتي دوّنت الكثير من الأمثال التي كانوا يقولونها.

وهو ما أكدّ عليه الدّكتور **زكي مبارك** حين قال إنّ للعرب في الجاهليّة نثر فنّي له خصائصه وقيمته الأدبيّة، بلغوا فيه شأنا بعيدا لا يقلّ عمّا وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، وإنتاجهم الأدبي في النّثر لم يكن متأثّرا تأثّراً كبيرا بغيرهم، بل كان في كثير من الأحيان تغلب عليه أصالتهم وذاتيّتهم واستقلالهم الأدبي الذي تفرضه بيئتهم المستقلّة وحياتهم. وإذا كانت الظّروف المختلفة لم تساعد على كتابة هذا التّراث من النّثر الجاهلي أنذك، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنّما يجب أن نلتمسه في مصادر أخرى جمعته.

كما أنّ نزول القرآن جاء لهداية هؤلاء الجاهليين، وإرشادهم، وتنظيم حياتهم في نواحيها المختلفة من دينيّة، وأخلاقيّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وأنه كان يخاطبهم وهم بطبيعة الحال لا يخاطبون إلاّ بالأسلوب الذي يفهمونه ويتذوّقونه، والقرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وعلى لسان واحد منهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم﴾ وهو ما يؤكّد لنا أنّ العرب الجاهليين قد عرفوا النّثر الفني، وأن القرآن يمكن أن يعطينا صورة ـ ولو تقريبيّة ـ عن شكل هذا النّثر، ومنهجه، وحالته التي كان عليها. ويوافق الدّكتور **محمد عبد المنعم خفاجي** **زكي مبارك** في قوله بوجود النّثر الفنّي في الجاهليّة.

أما الدّكتور **طه حسين** فيرى عكس ذلك أيّ لا يتصوّر أنّ يكون النّثر الفنّي موجودا في العصر الجاهلي؛ فهو تعبير جميل رصين محكم يستدعي الرّؤية والتّفكير والإعداد، فهو يلائم نوعا من الحياة لم يكن قد تهيأ للعرب أنا ذاك لما كان يتميّز به العرب من فطرة وبداوة وسذاجة وهذا النّثر المنسوب إليهم في نظره ليس إلاّ شيئا منحولا مدسوسا عليهم، فهذه الخطب، والوصايا، والسّجع، وغيرها يكفي أن ننظر إليها نظرة واحدة لنرجعها بأجمعها إلى العصور الإسلاميّة؛ لنفس الأسباب التي انتحل الشّعر من أجلها وأضيف إلى الجاهليين.

ويتحدّث **شوقي ضيف** عن نشأة النّثر الفنّي في الأدب العربي بقوله نحن لا نقف موقف بعض المعاصرين الذين قالوا بأن الكتابة الفنيّة أو النّثر الفنّي ظهر منذ العصر الجاهلي، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسيّة لا يؤيّد ذلك، إلاّ إذا اعتمدنا على بعض الأقاويل والظّن، والحقّ أن ما تحت أيدينا من النّصوص الوثيقة يجعلنا نقف موقف وسط بين الرّأيين، فلا نرجع نشأة الكتابة الفنيّة عند العرب إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصّحيح الذي تؤيّده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي.

وعليه يصح القول أنّه لم يصل إلينا من الّنثر الجاهلي ـ على كثرته ـ إلا ما علق في أذهان الرّواة من نفائس الخطب والأمثال، وشيءٌ من سجع الكهّان، ومن الواضح أن النّثر أسبق من الشّعر في الوجود؛ وذلك لأنّ النّثر ليس إلاّ ترقيماً لما يتبادل بين النّاس من كلام، إذاً لا نستطيع أن نرضخ بسهولة لقول القائل: إنّ العرب لم يعرفوا النّثر الفني قبل الإسلام، ولابدّ أنه كانت هناك استعمالات واسعة للنّثر، ككتابة العقود، وتبادل الرّسائل بين القبائل.

ومن خصائص النّثر الجاهلي الذي وصلنا أنه خالٍ من التّأنق والتّعقيد، جارٍ مع الطّبع البدوي السّاذج، قويّ اللّفظ، متين التّركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، وهذا ما جعل بالدّكتور **شوقي ضيف** أن يسمّي هذا النّوع من الكتابة بمذهب الصّنعة.

ـ النّثر الفنّي في العصر الإسلامي:

تطوّر النّثر في العصر الإسلامي ومن أبرز أنواعه التي تطوّرت هي الخطابة والتي أشار إليها الجاحظ في إحدى كتبه، حيث ضمّ العصر الإسلام الكثير ممّن امتلكوا قدرات خطابيّة مميزة بالإضافة إلى ازدهار فنّ الرّسائل والتي تميّزت بكونها رسائل سياسيّة حيث كانت ترسل بين الجيوش والملوك والخلفاء، كما صوّرت الرّسائل الإبداع النّثري للكاتب بالإضافة إلى مهارته البيانيّة.

يتبيّن لنا أنّ النّثر الفنّي في عصر صدر الإسلام تغيّرت أغراضه ومعانيه، حيث تلوّن في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان على كل حال أدبا مطبوعا، امتاز بالإيجاز على سنّة الطّبيعة

العربية الأصيلة، فهو استجابة لدواعي التّطور، متأثّر بالحوادث الدينيّة والسياسية التي كانت قد طرأت على العالم العربي آنذاك، كما كثر استعمال الكتابة الفنّية في هذا العصر، وأخذت ترقى وتنضج، وامتزاج العرب مع غيرهم من الأمم.

لكن لم يكد يختلف النّثر الفنّي في عصر الإسلام عن النّثر الفنّي الجاهلي، فمع كل هذه التحولات ظل مذهب الصّنعة مسيطراً على النّثر العربي، ولم يتحلَّل من قيوده، ولم تختلف خصائصه كثيراً عن خصائص النّثر الجاهلي.

- النّثر الفني في العصر الأموي:

كانت الكتابة ضروريّة في إدارة شؤون الدّولة والمجتمع في العصر الأموي، كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات، وكانت كذلك ضرورة علميّة لا غنى عنها في الحركة العلميّة التي ازدهرت وتعاظمت في أواخره، ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة، إبان ذلك العصر، توسعا عظيما، نظراً لإقبال الناس على طلبه.

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي هيّأت لرقيّ الكتابة الفنيّة في هذا العصر تعريب الدّواوين في البلاد المختلفة، وتعقّد الحياة السياسيّة، وكثرة الأحزاب والمذاهب، وقد تجلّت بواكير الكتابة في أواخر العصر الأموي بفضل موهبة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، الذي طوّر الكتابة العربيّة، ووضع الأساس لهذا المنهج الكتابي الذي اقتفاه الكتّاب من بعده، وهو أوّل من فتق أكمام البلاغة وسهّل طرقها وفكّ رقاب الشّعر، فهو ذو مكانة ملحوظة في تاريخ النّثر العربي، وذو أثر عميق في تطوّر الكتابة الفنيّة، فقد سنّ طريقة جديدة سار على نهجها من جاء بعده من الكتّاب.

كان النّثر الأمويّ خطابته وكتابته منصرفا بوجه عام إلى أغراض سياسيّة وحزبيّة، ولم يتّجه إلى الأغراض الأخرى إلاّ في صورة ضئيلة.

- النّثر الفنّي في العصر العباسي:

شهد النّثر العربي في العصر العبّاسي تطوّراً كبيراً والسّبب في ذلك كما يراه المؤرّخون هو دخول العديد من الثّقافات الأخرى مثل الثّقافة اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة وغيرها من الثّقافات والتي أظهرت الحاجة إلى ترجمة هذه الثّقافات وإدخالها إلى النّثر العربي، ونتيجة ظهور هذه الثّقافات وزيادة المعرفة العربيّة ظهرت أنواع جديدة من النّثر مثل النّثر العلمي والنّثر الفلسفي والنّثر التّاريخي، والنّثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوّره امتدادا للقديم؛ وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به.

كما أنّ قيّام الدّولة العبّاسية كان سببا في زيّادة الحاجة والاهتمام بفنّ الخطابة، بالإضافة إلى الرّسائل والوصايا ما سبّب في ازدهار فنون النثر بشكل عام، وبرزت طائفة من الكتّاب تعنى بالمؤلَّفات الطّويلة المفصَّلة؛ إمّا ترجمةً، كابن المقفع؛ وإمّا تأليفاً، كسهل بن هارون، والجاحظ، وقد التزم هؤلاء مذهب الصّنعة أيضاً.

لقد زخر العصر العبّاسي بالأحداث التّاريخيّة، والتّقلبات السيّاسيّة، كما زخر بالتّطورات الاجتماعيّة التي نقلت العرب من حال إلى حال، وقد كان لكلّ هذا، فضلا عن نضج العقول بالثّقافة، أثر واضح في تطوير الأدب بعامة، والنّثر بصفة خاصّة، لقد تقدمّ النّثر الفنّي في هذا العصر تقدّما محسوسا؛ وسار شوطا بعيدا في سبيل القوّة والعمق والاتّساع.

كان تشجيع الخلفاء والوزراء والرّؤساء للأدب وللكتّاب باعثا على النّهوض بالكتابة، داعيّا إلى ارتفاع شأنها، وسمو منزلتها، ثم كان التّنافس القويّ بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزا على تجويدها والتأنق في أساليبها.

والنّثر الفنّي في العصر العباسي قد اتجه إلى كثير من الأغراض والموضوعات الشّخصيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة؛ كالمدح والهجاء والرّثاء والاعتذار والتّهنئة والتّعزية والاستعطاف، والوصف والنّسيب والفكاهة والنّصح، ونستطيع القول بأنّ النّثر خطا خطوة واسعة؛ فهو لم يتطوّر من حيث موضوعاته وأغراضه فقط؛ بل إن معانيه قد اتّسعت وأفكاره قد عمّقت، وأخيلته قد شحذت؛ لأنّ مشاهد الحياة ومقوّماتها العامّة قد تغيّرت.

وفي أواخر القرن الرّابع؛ وفقاً لما وصلت إليه الحضارة العربيّة من رقيّ وتعقيد، ظهر مذهب جديد في النّثر العربي، يقوم على تصعيب طرق الأداء والتّعبير وتعقيدها، حتى صار هذا النّوع من الكتابة عند بعض الأدباء غاية تقصد لذاتها، ظهرت طلائع هذا المذهب الذي سمّاه **شوقي ضيف** بمذهب التصنُّع، في كتابات الخوارزمي، وبديع الزّمان؛ وبلغ أوجّه في مؤلَّفات أبي العلاء المعري.

وظلّ مذهب التصنّع يحتكر صناعة النّثر في البلاد العربيّة والإسلاميّة، ولم يظهر إلى الوجود مذهب بعده، بل كلّ من جاء بعد أبي العلاء من الكتّاب لم يكن إلاّ مقلّداً لمن سبقوه، وخمدت جذوة الإبداع عند أدباء العرب، واستمرّ النّثر ينتقل من أديب مقلِّد إلى آخر أسوأ منه، حتى وصل إلى الحضيض في العصر العثماني حين شدّد الرّكود والجمود قبضته على الفنون الأدبيّة، وأثخنتها مخالبه من كلّ جانب، حتى خمدت نار الأمّة الإسلاميّة، وبدأت العلوم والفنون تذرف عبرات فعبرات على أحوالها وتشكو بثّها وحزنها إلى الله.

وبالرّغم من ذلك ظهر في عصر الانحطاط كتّاب خرجوا على الأطوار السّائدة، وألّفوا كتباً مرسلةً خاليّة من التّعقيد والصناعات اللّفظيّة، بل كانوا دعاةً لتجديد النّثر، ومن هؤلاء

الكتّاب ابن خلدون، ومقدّمته كلّها تشهد له بالبيان والوضوح، ومن هؤلاء الثّوار على النّثر المصنوع أيضا القلقشندي، صاحب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» فقد تجنّب الأسجاع والتّرصيع والولوع بالبديع، وتخلّى عن التّعقيد، إلاّ نادراً، كمقدّمة الكتاب التي جاءت مسجعة.

- النّثر الفنّي في العصر الحديث:

في العصر الحديث شهد النّثر العربي تطوّراً ملحوظاً، حيث ظهرت فنون نثريّة جديدة كالمقالة والقصّة القصيرة والرّواية والمسرحيّة بالإضافة إلى الكتب العلميّة والتّقارير الرّسميّة، ولعل أبرز فنون النّثر في العصر الحديث هي الرّواية، وكنّا قد فصّلنا حول النّثر في العصر الحديث في المحاضرات السّابقة، حين تحدّثنا عن عوامل ظهور النّثر في العصر الحديث، وعن كيف تطوّر؟ وما هيّ الاتّجاهات التي ظهرت فيه؟، ومن أهم أعلامه ومؤلّفاتهم؟.

ظهر في النّثر العربي الحديث لون جديد في الكتابة المرسلة المتّحررة من السّجع والصّنعة والبديع، ثم عقب ذلك أحرز النّثر العربيّ الحديث تطوّرا واسعا، وتحرر تماما من تلك القيود البديعيّة، ويعقب هذا الجيل جيل كان أشد تأثرا بعوامل النّهضة الفكريّة والثّقافيّة والحضاريّة التي تركت سماتها البارزة على النّثر العربي الحديث.